استراتيجية المقامة في تعرية الماضي المشرقي من خلال أدب الوهراني

د. سعدلي سليم
جامعة برج بوعريريج
د، جراح وهيبة
جامعة ميلة.

الملخص:

إذا اتخذنا من "الحضارة المشرقية" نموذجاً، سنجد أن حجاباً وعازلاً معرفيا كاملاً قد تمّ إنشاءه من طرف كتّاب السّير والمغازي في "العصر الأيوبي"، يحجب موروث الكُتاب المغاربة ويجُبُّه حتى لا نعرف "أشكال العنف المُمارس ضد المرأة المغربية"، إلاّ من خلال ما رواه كُتّاب السيّر في ظروف سياسية ومعرفية مختلفة إلى حد التناقض.

في "مقامة شمس الخلافة" يصور لنا السّارد تفاصيل الحياة النفسية لدى كل من "المرأة المغربية" و"الرجل المشرقي" وكيف هو "العنف المؤسساتي" في المجتمعات المشرقية. نجحت هذه "المقامة" في استبطان المشاعر البشرية في مناطقها الشائكة المسكوت عنها، وأن تصور متغيرات مشاعر "المرأة والرجل" وفق مراحلهما الزمنية، وأحداثهما المحورية بحياتهما، وتواجه الكتابة السّردية في "المقامة" السؤال الأصعب بحياة "المرأة المغربية، وآليات تمثيل عنف الواقع التي ترسم لنا معالم الهوية لدى المرأة المغربية (الجزائرية) وسنتناولها بالدراسة في مقالنا المتواضع.

الكلمات المفاتيحة: طمس الهوية المغربية الجزائرية، أدب الوهراني وكشف المستور، عنف الرجل المشرقي تجاه المرأة المغربية، آليات تمثيل عنف الواقع المشرقي الذي يحتضن الذات المغربية، مهارة المقامة في كشف المسكوت عنه.

Abstract:

If we "Levantine" civilization model, we find that the full veil and cognitively buffer has been created by the book Sir, Maghazi in the era of Saladin, "obscure book succades Moroccans and answered him don't even know" forms of violence against women ", but through what was narrated by Sir book Political circumstances and different cognitive discrepancy.

In "succession" Sun station depicts us the narration details the psychological life of Moroccan women "and" Levantine "man how is" institutional "violence in Levantine communities.

These "established" in human emotion internalization in the thorny areas taboo, to visualize feelings variables "women and men", and the early stages of their lives, facing the central narrative writing in "built" big question "lives of Moroccan women and the mechanisms of

representation of violence Fact that paint us landmarks in identity of Moroccan women (APS) and are going to study in our humble opinion.

Keywords: Blur Algerian Moroccan identity - The wahrani literature and uncover - Male violence towards women Levantine Morocco- Indeed, the violence of representation mechanisms Levantine embraces Moroccan self- Skill in revealing the untold story.

يقدم "روبيرت ماكافي بروان" تعريفا مطولاً للعنف بوصفه انتهاكاً للشخصية، بمعنى أنه تعدٍّ على الآخر، أو استهجان، أو تجاهله ماديا، أو غير ذلك. إنّ مخاطبة الشخصية تعني إعطاء وصف شامل للعنفٍ بأنّه أكثر من مجرد الجسد والروح. إنّه يقر بأن الأعمال التي تسلب الشخصية، هي أعمال العنف؛ فأي سلوك شخصي ومؤسساتي يتسم بطابع تدميري مادي واضح ضد آخر يعدُ عملاً عنيفاً. هناك الاستهجان الشخصي الخفي، الذي يؤذي الآخر نفسيا كالتهديدات اللفظية، فهي غير عنيفة لكنّها عدوانية، بوصفها محاولات لتدمير سمعة الفرد أو تقويض علاقات الأفراد مع غيرهم من بني البشر، فالعنف المرتكب بحق الأشخاص يتضمن الإساءة اللّفظية والجسدية، وهناك "العنف المؤسساتي" الخفي؛ حيثُ تنتهك البنى الاجتماعية **هوية مجموعات الأشخاص**.
لقد جرى تعريف العنف الاجتماعي بأنّه هجوم على فرد أو على هويته، لمجرد انتساب الفرد إلى فئة اجتماعية. إنّ العنف تعبير ضروري عن الغضب، الذي يفسر بأنّه عدوان، أو أنه دافع فطري للسيطرة على ماهو فطري أو تدميره بوصفه إرادة قوة شجاعة، والتعبير عن الغضب يعتمد على توقعات السلوك الإجتماعي، وعلى السماح بذلك السلوك، بتكييف الانفعال والتعبير عنه اجتماعياً[i].
اتجه الوهراني في خطاباته إلى تطوير فكرة **"التمثيل بالانفعال"** باعتبارها أكثر الوسائل الخطابية جدوى لملاحقة الهوية المسلوبة، وهي فكرة تهدف إلى إيجاد آليات أخرى للتعبير عن موقف درامي إنساني يحافظ على تأبيد كينونته، ولكنّها ما تزال معركة هجاء حاد، وما تزال رغم تطور آلياتها، معركة "خطابية انفعالية"، عارية من لحظة المواربة. وهذه الرؤية الخطابية الحادة تقف بتردد بين سخريته وبين انفعالاته، وهي مجرد صرخة مشحونة بالغيظ الذي ما يزال في صدره تجاه كل الحاقدين المعادين له، ولكن القارئ مطالب بأن يلاحظ هذه النبرة المفاجئة التي توسل بها، والتي تربط بينه وبين سذاجة القضاة في العالم المشرقي، وأصبح من المحتم أن يتغير حقل الخطاب مرة أخرى بصورة جذرية.هنا، بدأ مسيرته في اتجاه التعبير الخطابي العنيف أو القناع، التي تبدو مثل محاولة محزنة لتلمس العزاء في تاريخ العالم المشرقي باعتباره تراجيديا في تصوير همومه، فهو المغترب في دمشق، لا مؤنس له سوى

كلماته، وإخفاقات أصدقائه الذين كانوا يلاقون المصير نفسه في مدن المشرق، والذين يمثلون معه على مسرح واحد رغم كل الاختلافات وهنا بدأت مشكلة التعبير الانفعالي تأخذ طريقها في يسر، عبر هذا الصراع المتجدد على الدوام وانطلق الكاتب بصورة نهائية وراء تلك المرحلة المرهقة التي تنتهي بتبني "**فكرة الانفعال**" من الخارج والداخل سواء.

أ –عنف الخطاب واستبطان المسكوت عنه.

أثناء الحديث عن خصائص الكتابة، بصفتها نصا عنيفا، وبنية تركيبية شديدة الوقع والوقع هنا لا يعني الحدّة، كما لا يعني شيئا آخر، إنّما نقصد بالوقع حدة البنية من حيثُ حكميّتها وبصفتها لغة سرديّة تمتاز بدقّة المعنى ووضوح الرؤية؛ لغة "الأنا"، الذات المقنّعة بقناع الانفعال، يحكي هويته كذات ووطن وتاريخ، وغيرها من أنواع الهوّيات داخل دائرة الهوية الكبرى للوجود الإنساني[ii].

يتشكل الخطاب السّردي السّاخر في "مقامة الوهراني" من خلال نقطتين: الغربة الناجمة عن الرحلة المشرقية والتهميش الناجم عن المشارقة، قطب أساسه جمالية بشاعة السّخرية التي لا تعترف بالهزيمة، وكلا القطبين مرهونان بحضور الذات المغربية السّاردة ومن ثمة تمثل هذه الذات قطب الرحى؛ رحى السّخرية الانفاعلية، ورحى التمرّد على القيم المشرقية ممّا يسِمُ هذين القطبين بسمة العنف، ولذّة المسرود، ومع حركة رحى القطبين يعاد تشكيل رؤية مغايرة للتاريخ، فالتاريخ بصفته أحداثا ماضوية وزمناً منتهيا، هو أيضاً هوّية "الأنا" السّاردة، تحاول من خلال حكيها العنيف للتاريخ أن تقدم نفسها للآخر بغية تأويله لماهيتها ليتعرّف بدوره على هويته المنفلتة في البلد المشرقي فهو لا يدرك هويته إلاّ بحضور "البلد الأصلي" والاحتماء بتلك الأوطان في أوطان أخرى، كما يوضحه هذا المقطع:" **وأكبت بها الأقران في وهران، وأطلق عنان اللّسان في تلمسان، وأدعو له في مدينة فاس على عدد الأنفاس وأثني عليه في أغمات، ولو أن للقلم لسانا، وللورقة إنسانا لصرختُ وتألمتُ وتظلمتُ، حتى إذا هرمت سعودها ودى عودها، رميت بالرواعد، فأتى الله بنيانهم من القواعد، ولأنشدتك في الملا، قول الشيخ أبي العلا: جلوا صارما وتلوا باطلا وقالوا صدقنا فقلنا نعم، ولكن السكوت عن هذا أنجح، ومسالمة الأفاعي أصلح"**[iii]. بهذه "الصّرخة* الخطابية" التي يرسمها لنا هذا المقطع تنكشف هويته وتنفتح على عوالم "التهجير القسري"** متمثلة في هذه الرموز: **وأكبت بها الأقران في وهران، وأطلق بشكره اللّسان في تلمسان**، إنّها تسعفنا على تفسير الأحداث وهذا من خلال المنجز السّردي المثبت خطاباً مكتوباً، فالخطاب " المتصل بالكتابة والسّرد يقوم على قاعدة أنطولوجية ضمن ظروف تاريخية مزامنة للحظتي الحكي والمعنى، متأتية من

كون الإنسان منتجاً للعلامة والرمز*** قصد إدراك الهوّية على نحو تأويلي، من خلال إقامة دائمة للمبدع في فضاء متحرك دلالة ومعنى يتخارج في مسرودات ومأثورات مقولة أو مكتوبة تموضع الفكر ثقافات متناثرة علّها تمسك بالسّارد لحظة تعبيرها عن الوجود"[iv].

فإذا ما جئنا نستقرئ هذه الشفرات اللسّانية قراءة تأويلية كانت كالتالي:

وأكبت بها الأقران في وهران = الهويّـة.

وأطلق بشكره اللسان في تلمسان = الهوية.

وأدعو له في مدينة فاس = الهوية.

حتى قربت من العراق وسئمت الفراق، فأرحت نفسي= استعادة الهوية.

يتبين لنا جليّا أنّ هذه المقاطع بما تضمنته من رموز تحكي صرخة الاستنجاد بالوطن الأم، وتشعرنا في الوقت نفسه بتوحد البطل في عالم صاحب بالحركة، " فعندما يخرج الإنسان إلى الحياة، ويتخذ له مكانا ما في الوجود، تعترض رغبتَه رغباتُ الآخرين، **فيتولد بالضرورة التدافع والغيرة والحسد والعنف**، وهكذا، فالعنف يسم العلاقات الإنسانية ويتواجد في كل لحظة تلاق وأثناء كل تحاور بين الناس"[v]. إنّها ذات محمول نفسي انفعالي ترتفع بالمسرود والمصوّر والمتخيّل والمخبوء والمسكوت عنه، إلى أعلى مستوى ممكن من الاصطدام بالقارئ وتحفيزه وإثارته وتحديه، بصفته نصاً يقول مالم يصرح به كاتبه، ولأنّه لا يكتفي بفضح المعنى فقط وإنّما يقدم متعة الصرخة التي تقدم لنا معالم نفسية السارد، "إنّ قراءة النص يجب أن تستند إلى النظام النصي نفسه الذي يستعان في توضيحه ببعض العلوم الإنسانية: كعلم النفس التحليلي والنقد المضموني والتاريخي"[vi].

نعتقد أن الوهراني حين كان يكتب نصه بلغة انفعالية تحكي مآسي الغربة، كان يراهن بيقينية على أهمية الرّمز، والشّفرة التي تليق بمقام الهوية، وحين كان يمارس تلك التقنية الفنية كان يدرك مدى أهمية عملية الشفرة، وباقي عناصر التعمية، أهميتها في قدرتها المتميزة فنيا ومعرفيا على فتح النص على "التفسير الهرمينوطيقي" بالاستعانة على الضغط النفسي، كان يفعل ذلك وهو يدرك بوعي الكاتب المتمكن من أدواته الإبداعية أن النص السّردي السّاخر كلما عوّل على إضطراب اللغة ووقعها كلما حقق درجة عالية من الغواية، ومن فتنة اللغة، وقد تعوذ الجاحظ قديما من فتنة اللغة "أعوذ بالله من فتنة القول"[vii]، وفي اعتقادنا لن تتحقق تلك الفتنة إلاّ بعنف اللّغة.

ب– استراتيجية المقامة في تعرية الماضي المزيف:

إذا اتخذنا من "الحضارة المشرقية" نموذجاً، سنجد أن حجاباً وعازلاً معرفيا كاملاً قد تمّ إنشاءه من طرف كتّاب السّير والمغازي في "العصر الأيوبي"، يحجب موروث الكُتاب المغاربة ويجُبُّه حتى لا نعرف "أشكال العنف المُمارس ضد المرأة المغربية"، إلاّ من خلال ما رواه كُتّاب السيّر في ظروف سياسية ومعرفية مختلفة إلى حد التناقض.

في "**مقامة شمس الخلافة**" يصور لنا السّارد تفاصيل الحياة النفسية لدى كل من "**المرأة المغربية**" و"**الرجل المشرقي**" وكيف هو "العنف المؤسساتي" في المجتمعات المشرقية.

نجحت هذه "**المقامة**" في استبطان المشاعر البشرية في مناطقها الشائكة المسكوت عنها، وأن تصور متغيرات مشاعر "**المرأة والرجل**" وفق مراحلهما الزمنية، وأحداثهما المحورية بحياتهما. وتواجه الكتابة السّردية في "**المقامة**" السؤال الأصعب بحياة "**المرأة المغربية**"، كما يصورها هذا المقطع:" **وحاولَ الرجل كل معيشة فلم يقدر على حشيشة، فساقه القلفندر والقضاء المقدر إلى "عجوز مغربية" محكمة في خمسين صبية، تعلم البنات الغزل وتجنبهم المجون والهزل.."**[viii]. يصور لنا السّارد هذه العجوز، حين تعترض طريقها علاقة حب جديدة طرأت على حياتها، ويحاول من خلال ذلك أن يطرح تساؤلات عدة، من قبيل: هل من الأمثل الاستمرار زيفاً في علاقة مع الزوج من أجل مصلحة مادية، أم أنّه من الأفضل المكاشفة والمصارحة؟ وهنا تظهر ازدواجية المشاعر، أو عيش مشاعر لا تتسم بالصدق لدى كل من الرجل المشرقي والمرأة المغربية تلك القضايا التي تواطأ الجميع على عدم الخوض فيها أو مواجهتها.

تصور "الوهراني" في تلك "المقامة" حياة التوازي مع الواقع المشرقي، تلك التي تقع في منطقة الأسرار الخاصة بطرفي العلاقة، العذاب المقيم بنفس كل من "المرأة المغربية" و"الرجل المشرقي" نتيجة للازدواج[G]، لأجل ذلك نمثل بهذا المقطع المقتبس:" **فأبصرته العجوز على تلك الحالة، فتوسمت فيه عظم الآلة فسرى خيالها، وسال عليه ريالها، ولم يفارق بابها حتى كتبت عليه كتابها، ولما اختلاها واعتلاها، وكنف من ليلته خلالها، أيقنت أنه يبرد غليلها ويداوي عليلها فقامت على الفور، وهو من ورائها كالثور..."**[ix]. يدعو الكاتب القارئ إلى الإنتفاع بما تضمنته هذه العبارات من أخلاق مزيفة يتمتع بها الرجل المشرقي الذي قضى منفعته من زواجه بالمرأة المغربية التي أنقذته من الفقر الذي كان يحدق به، ناكراً الجميل لكونه أصبح شخصا معروفا بنيته الفاسدة عند الزوجة. يزعم فرويد " أن الحقيقة الكامنة وراء كل هذا هي أن الرجال ليسوا مخلوقات لطيفة تريد أن يحبها الآخرون، بل يمتلكون قسطاً كبيراً من "العدوانية العنيفة"، بحيث يصبح الجار، بالنسبة إليهم، ليس مجرد مساعدة

أو أداة جنسية محتملة فقط، وإنما هو أيضا شخص يحاول أن يشبع عدوانيتهم عليه، وذلك باستغلاله جنسيا وحجز أملاكه، وإذلاله"[x].

كما أن "المقامة" تكشف عن جانب من سيطرة الثقافة الذكورية في المنظومة الأخلاقية للمجتمع المشرقي، كما هو واضح في هذا المقطع:" **تغير على زوجته بعد أن كان يفديها بمهجته، وصار يجري بينهما في المجالس، ما يحفظ عنهما في المدارس، ولقد رأيتهما يوماً يُشالقها وتُشَالِقهُ ويخالفها وتخالفه، ويقال لها: ألست تعلمين يا جيافة أنت لقبت من أجلك بزوج العلافة فلعن الله الأشفار والأظفار وما تحويه الأخصار من حانوت العطار..."**[xi].

إنَّ وضع النص في هذا السياق يفرض على المحلل رصد التقنيات التي حشدها الكاتب لإقناع متلقيه برأيه والتأثير فيه بحمله على استهجان الثقافة الذكورية(المشرقية)، والتقليل من شأنها فتلقّي "المرأة المغربية" "بشمس الخلافة" يختلف عن تلقّي "الشخصيات الأخرى" بنسائهم وإن كانا يقعان في المنطقة النفسية ذاتها(المشرق)، هذا فضلا عن كيفية تلقي "المرأة المغربية" لنزوات زوجها "شمس الخلافة" المتناقض تماماً مع تلقّي هذا الأخير أو استشعاره لهذه العلاقة.

تبقى شخصية شمس الخلافة في هذا المقطع التي أخذت تُردد[**يا جيافة..**]، ما هي إلاّ رمزاً لمجتمع سلطوي ذكوري، يُتعرى أو يعرى في الكتابة المقامية السّاخرة، وما فيه من عنف أسري، إنْ هو ترسيمة عارمة لمجتمع يضج بجنسانية مستبدة، وربما كان الوهراني في عالمه المشرقي نداً لكل معترض، صخّاباً أكثر مما ينبغي ونهاباً للمعاني القارة وراء الكلمات فضائحياً لواقعه كاشفاً بوقاحة لا متناهية عن جغرافية نتنة(إيروسية) بكل دلالاتها تعم المجتمع إن الفضح بالكلمات هو فن مباغتة ما يجري في واقع فعلي[xii].

ولعلنا هنا نتساءل لماذا تحيا "المرأة المغربية" ذلك "العنف الأسري" الذي سطرته السّلطة الذكورية، ولم لا تستطيع المواجهة وتحمل تبعاته؟

تظهر بطلة المقامة(المرأة المغربية) غير قادرة على اتخاذ قرار بالمواجهة بما تريده ويصور السّارد(الوهراني) مناطق الطمع البشري، كما يمثلها هذا المقطع: [**وحاولَ كل معيشة فلم يقدر على حشيشة فساقه القلفندر، والقضاء المقدر إلى عجوز مغربية محكمة في خمسين صبية، تعلم البنات الغزل وتجنبهم المجون والهزل، فقد اشتهرت بالرفق والأناة والحذق في تعليم البنات قد أخصب مكانها، وامتلأت بالكسر أركانها. فجاء هذا الشيخ أبو الخرا يطلب عندها بيتاً للكرا وهو كما رأيت قد جمع بين الجفا وغلظ القفا، فأبصرته العجوز على**

تلك الحالة، فتوسمت فيه عظم الآلة، فسرى خيالها، وسال عليه ريالها، ولم يفارق بابها حتى كتبت عليه كتابها]. ينقل لنا السّارد كيف تريد البطلة أن تحتفظ بكل شيء: بيتها وحبيبها، الغبي والفاشل، لا تستطيع الصبر عليه وتحمل تبعاته، ولذا تبقى معذبة ومنشطرة طيلة السنوات التي ارتبطت فيها "بشمس الخلافة،(أبو الخرا)". ربما تنشأ الحيرة والتردد أيضا من طبيعة العلاقة المبنية على الطمع، التي تظل تحت وطأة التغير والتبدل، علاقة لا تحمل قدرة الاستمرار إلا تحت ضمان الحب ذاته، الحب الزائل الذي رسمه السّارد في النهاية كما يوضحه هذا المقطع:[**قال عيسى بن حماد: ولما ارتفعت الهمة وامتنعت الذمة تغير على زوجته بعد أن كان يفديها بمهجته، وصار يجري بينهما في المجالس، ما يحفظ عنهما في المدارس، ولقد رأيتهما يوماً يُشالقها وتُشَالِقهُ، ويخالفها وتخالفه، ويقال لها: ألست تعلمين يا جيافة أنت لقبت من أجلك بزوج العلافة فلعن الله الأشفار والأظفار وما تحويه الأخصار...]** ، على هذا النحو تفهم طبيعة تلك العلاقة التي تبخرت مع الزمن، لتبقى هذه العبارات المقتبسة تحدّ للمعاش وترصد لوقائعه، أو كما يراها بعضهم، " شكل خطابي، يشتغل على هتك العنف الممارس، وتمرد على المنفعية والذكورة المشرقية المتسلطة في تجليها السياسي"[xiii]. ثمة شفرات سردية في نصوصه تنذر بالكارثي، إنّ المنفعي ينحل في الذات المشرقية، في رغبات متأججة تفصل بين جسد وآخر وفي الآن عينه، تلغي حدود القيمة الروحية للمرأة المغربية، التي ظل الكاتب مدافعا عنها.

إلى جانب ما سلف، مكنت آلية تعدد المواقف في "المقامة" من تنوع تصوير البطلة المغربية، فأثرت النص معرفياً، وأثارت حفيظة المتلقي، فالمرأة المغربية التي تُعلم "شمس الخلافة"، تربط بين حياتها الخاصة الحميمية، والقضايا الفكرية، كما يصورها هذا المقطع " **فقال: أعلم أنه لما اجتمعت العجوز المغربية على تعليمه، ورده إلى المدرسة وتسليمه تخوف من ذلك الأمر، وبات ليلته على الجمر. فلما أصبح قال لها: يا هذه اعلمي أني كنت في بلدي اسكافا، وأصبحت اليوم في مرحاضك كنافاً، فكيف لي بالمدارس وأنا كالطلل الدارس؟ ومن أين لي بالخير وأنا مثل حمار العزير؟ والله ما أفرق بين الحروف وبين قرون الخروف، فقالت: أنا أعلمك العلم كله إلاّ أقله وأعلمك فصلا في التدريس تغلب به مُحَّد بن إدريس[G]، فقال لها: يا هذه والله ما أرجو من المدرسة نفعاً، وإني أخاف أن يقتلوني صفعاً فدعيني من اقتحامك وإقحامك، ووفريني على لطم أرحامك. فقالت: أريد أن أخرجك من المدابر وأضعك على رؤوس المنابر، فأحضر ذهنك، وافتح لهذا الدرس أذنك، اعلم أن الألف قائم كالمغزل، وهو كباب المنزل، والباء كالصنارة، أو كرجل المنارة، والهاء كالثقالة، وفيها شيء كالعرقالة[GG] والطاء كالخف، أو كطارة الدف، وكل مدور ميم، وكل معوج جيم، والصاد تشبه نعالك،**

والذال تشبه قذالكGGG **وإن القاف والكاف تشبهان اللكاف**GGGG**، فاحفظ هذا الكلام وقد أصبحت مفتي العراق والشام واحذر مخالفتي واعتزالي، واعلم أن بهذا الفضل تقدمت الغزالي. فأقبل التيس يكرر لفظه حتى أجاد حفظه، وعندها خرج في القمة والعمة وعزم على مدرسة جمال الأمة. فخرجت تبخره من العين وتقرأ عليه المعوذتين، وقالت له: إذا جلست فتربع، ولا تتقنبع، وانشر أكمامك، وأظهر للناس أعلامك، فإن الغريب ابن ثوبيه والمقيم ابن جديه. فقال لها: أوصيني رحمك الله. فقالت: له: إذا حضرت فانفخ حضنك وبطنك، وانفش بين الفقهاء ذقنك، وباكر المدرسة في الصباح، وسابقهم إلى الرواح، وإن غلبوك في العلم فلا يغلبوك في الصياح. فقال لها: أخاف أن أقتل بالكوالك، ولكن أوصيني. فقالت: خذ اللفظ بأنمالك من شفتيك، وزاحم الفقهاء بمنكبيك، وابصق في وجه الشيخ ولاجناح عليك. قال: فهاتي إذا شيئاً من قماشك ألقي به صفع الشماشك**G**. فقالت: أجسر على القوم فما هو إلاّ بياض اليوم، وأعلم أن الفقه ليس هو شيء غير النفاق والزعاق وتلويث وجه الخصام بالبصاق..."**[xiv]. يتعرض السّارد هنا إلى تفسير وشرح النظرة الدُونية التي بقيت في إطار "العنف الجنسي" الاستغلالي على حد تعبير فرويد، كما يدمعه هذا المقطع: [**فدعيني من اقتحامك وإقحامك، ووفريني على لطم أرحامك]**، هذا المقطع يكشف عن السّائد في غضون التاريخ المشرقي، ويرصد لنا بعض المشكلات النسوية التي تواجهها المرأة المغربية في مجتمع لا يدرك تماما ثقافة المرأة المغربية وقيمتها، فتتعرض "المرأة المغربية" للسلب والنهب وغيرها من معوقات الحياة التي كُبلت بها.

لغة السّرد المقامي هنا عنفوانية، يمكن أن نعتبرها نمطاً سردياً ساخراً للكشف الجريء لأنَّ الكاتب يقود شخصياته(العجوز المغربية/ الرجل المشرقي)، وينقاد عبرهما ومعهما وخلفهما، إلى عالم مسكون بعنف خطابي؛ حيث اللغة الخطابية التخريبية(الهادمة) التي جعلها الكاتب على لسان "المرأة" تعصف بالسّائد، والملل القاتل، لكون" السّائد يبثُّ العنف في عروق اللغة السّاردة، السّاخرة"[xv] التي ينتجها الكاتب من أجل تعرية الواقع، مما أدى بها إلى الانفعال كي تقرّ في آخر المقطع بأنّ الفقه ليس هو شيء غير النفاق والزعاق وتلويث وجه الخصام بالبصاق.

في هذه المناطق السّردية الكثيفة على حد تعبير "إيكو"، نشعر أننا نعيش واقع الكتابة النّسوية، فنجد أسماء للحروف تبتدعها المرأة المغربية، كما يوضحها هذا المقطع:[**اعلم أن الألف قائم كالمغزل، وهو كباب المنزل، والباء كالصنارة، أو كرجل المنارة، والهاء كالثقالة وفيها شيء كالعرقالة والطاء كالخف، أو كطارة الدف، وكل مدور ميم، وكل معوج جيم والصاد تشبه نعالك، والذال تشبه قذالك، وإنّ القاف والكاف**

تشبهان اللكاف، فاحفظ هذا الكلام...]. كما نجد أصداء لقضية تثقيف "الرجل المشرقي" والعمل على إعادة الهيبة التي سُلبت منه، وصيانتها من الجهل، كما يصوره لنا هذا المقطع:[**وقالتْ له: إذا جلست فتربع ولا تتقنبع، وانشر أكمامك، وأظهر للناس أعلامك فإن الغريب ابن ثوبيه والمقيم ابن جديه. فقال لها: أوصيني رحمك الله. فقالت: له: إذا حضرت فانفخ حضنك وبطنك، وانفش بين الفقهاء ذقنك، وباكر المدرسة في الصباح وسابقهم إلى الرواح، وإن غلبوك في العلم فلا يغلبوك في الصياح...]**. يمكن القول عن هذه القضايا المطروحة في المقطعين بأنّها من القضايا الجدلية التي تحتمل تناقضات وسياقات مختلفة، كانت شخصية "شمس الخلافة" دافعاً للحديث عن علاقة السّارد بالمرأة المغربية المثقفة، كما كانت دافعاً للحديث عن ثقافة الاستهجان لدى المجتمع المشرقي التي طالت الهوية الجزائرية وتلك الاختلافات التي يصنعها، بما يمكن أن يمنحه من حرية للرجل ويسلبها من المرأة، بل ويضعها في منطقة المحرمات التي قد تصل لأن يستحل قتلها والإجهاز عليها بتهميشها ووصمها بالعار.

يمكن أن نطلق على هذه المقامة اسم "المقامة الاستشرافية"، فهي تخوض في "الآثار التاريخية المطموسة"، نظرا لاتجاه السّارد في الكتابة الذي سبق وأن أدرجناه في "السّرد الحفري"، وكثير من الكشوف فيها، ولنا أن نلاحظ اختيار الوهران للمجال المهني لشخصية "المرأة المغربية" التي تعمل على تدريس زوجها "شمس الخلافة"، هذه الوظيفة التي تأديها المرأة المغربية، هي الكشف عن كل ما هو تاريخي مخفي، وينتمي للضرورة التاريخية على حد تعبير "فوكو"، وهو ما يزيد من شعور المتلقي بواقعية العمل الإبداعي، ويساعده كذلك على التماس النبض التاريخي الذي يوازي نبض الحياة المشرقية قديما وحديثاً.

في هذه المقامة يناقش السّارد مطموسات "العنف الأنثوي المغيب"، وفي هذا إدانة لأخلاق المجتمع المشرقي الأبوي التي تجعل من حياة الفرد المغربي حياتين، واحدة سطحية معروفة ومحترمة يعيشها كزوج، والأخرى سرية يعيشها في الخفاء كعبيد، بحيث إن هذا الازدواج يشير وينبي بأبعاد السلوكات المتدنية، وهذا ما دفع الوهراني إلى تمثيل عنف الواقع الذي صاغته المقامة في متنها الحكائي.

مقامة شمس الخلافة تبقى من المؤلفات التي لامست الفكر، من خلال نافذة النقد والسّرد، كما تؤصل لتجربة المرأة المغربية في التجارب الإبداعية، كنموذج لامرأة استطاعت بحيلة الحكي والسّرد أن تدفع عنها وعن بنات جنسها القتل والفناء، ولم تكن في هذه التجربة بعيدة عن آفاق العمل الإبداعي الذي يحتمل السّرد القصصي ويحتمل السّيرة الذاتية.

نصوص عديدة تلك التي استطاعت في العالم العربي أن تفضح استهجان "العالم المشرقي" وتفسخه بنبرة جادة وحاسمة أحياناً، وساخرة ومرّة أحياناً أخرى، واضعة القارئ بين سحر الموضوع وجمال الكتابة التي تبحث عن خصوصيتها وتميزها بين ما يكتب في العالم، مؤكدة في الوقت ذاته دور "المتخيل العربي" في متابعة الواقع واحتفاظه بماء الوجه، عندما تصبح الأنظمة العربية (المشرقية) متخاذلة ومتواطئة مع أصحاب السّلطة والعناصر الرجعية.

إنَّ قراءة أولية لهذه "المقامة" تفرض على القارئ نوعاً من مشاعر الضيق والكبت وانعدام الحيلة إزاء ما يجري من أحداث تميل إلى صياغة عنف الواقع المشرقي بكافة مفرداته وتفصيلاته لما يعكسه من متناقضات حسية تجري على نسق واحد في التضاد، فمرة نجد أنفسنا نركن إلى العطف إزاء هذا "الكاتب" الخانع والذي لازمته النبرة الانفعالية كرد فعل منذ "الرحلة المشرقية"، وكأنّما ولدت معه وختمت بالبؤس على جبينه، ومرة تجد الإحساس يحذو نحو السّخط إزاء سلبيته المفرطة تجاه ضغوطات الحياة ومجريات الأمور لدرجة تمنحك الحق في التشفي، إلاّ أن طيبته كإنسان وهدوءه يجبرك على التأني في الحكم.

يتحول الوهراني في معظم نصوصه إلى مغربي وفي لمعالم هويته، وسيلته الوحيدة للتعبير عن عنفه الداخلي حِرصُه على أن ينتقم من خصومه في فضاء عبثي سعى لإنشائه في قلب العالم المشرقي الخاص بأعدائه، وأراد أن يجعل من التاريخ خلفية تضفي على عنفه "معنى ثقافيا" وكان يقايض الرموز المغربية والثقافية بلذات يعتقد أنه بها سيثأر لنفسه بها.

الهوامش:

[i] – ينظر: باربرا وتمر، الأنماط الثقافية للعنف، تر: ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة، الكويت، ع، 337 2007، ص 9- 10- 14.

[ii] – ينظر: مُحَّد بهاوي، العنف والعدالة، نصوص فلسفية مختارة ومترجمة، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2013 ص 18-19.

[iii] – مقامات الوهراني، ص 4- 8.

[*] – من باب التوثيق لبعض المصطلحات التي تدخل في حيز عنف اللغة، مصطلح "**صرخة اللغة**" الذي أشار إليه: عالم الأصوات الفرنسي "إ"يفان فوناجي" إعتبر بأن صرخة اللغة في مظهرها الكلامي المنجز عبارة عن تسنين مزدوج، أي أنها نسق تعبيري يعبر عن نمطين من المعلومات: أولا، معلومات ذات طبيعة لغوية أولية أو أصلية تجسدها العلامات اللغوية من خلال صلة الاعتباط القائمة بين الدال والمدلول؛ وثانيا، معلومات ذات طبيعة ثانوية أو فرعية ملازمة ومصاحبة للأولى ولا تنسلخ عنها، وقد سمى" فوناجي "هذا النوع الثاني من المعلومات: الأساليب الصوتية، وهذه الأخيرة حاضرة بقوة في كل تلفظ صوتي، وتتكفل بالتعبير عن مشاعر المتكلم وإحساساته ومواقفه الانفعالية الواعية واللاواعية وبعبارة أخرى، فالمستوى الأول يشمل مظاهر اللغة المعرفية والثقافية والعلمية، بينما يختص المستوى الثاني بالجوانب النفسية والشعورية . ينظر: مراد موهوب، لغة العنف وعنف اللغة : مقاربة لسانية نفسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – بني ملال المملكة، ص 5. موقع: www.alukah.net

** – **التهجير القسري**: يؤدي إلى"الانفعال الخطابي والخضوع للضغط النفسي، لأن واقعنا الإنساني أكثر بشاعة ويحتاج الكاتب إلى محكي ليكتب تجربته التي تتناول أحداث العنف الإقصائي والقضاء على الهوية والتهجير والاحتقان العنصري. ينظر:أحمد الأنباري: العنف هاجس يتجلى في الرواية العربية، ص 3، www.aljazeera.net

*** – إنّ الرموز هي مواضع انتقاء تاريخي للأسماء، أو هي تصورات خيالية بين التجربة والواقع، تختزن التجربة الإنسانية بوساطة صور التجربة **أو رموزها : فالرموز هي تشفير، وتسمية، وتصنيف للتجربة (الأفكار، والانفعالات والرغبات والاستجابات الحاصلة فكريا)** في صور الذاكرة، التي تقوم بوظيفة نماذج سلوك محتمل، حيث نحتفظ بتفسيرنا لتجاربنا في تداعيات رمزية. ومن الصعب تفسير سيطرة الرموز الكاسحة علينا ما لم نتعلمها بالتزامن مع التجارب اليومية القوية. يصبح التمثيل الرمزي الذي يحدد التجربة مركزيا في تشكيل تخمينات الواقع أو المعتقدات من خلال الوعي والمحاكمة العقلية، وتتنوع المعتقدات والتخمينات بشأن العنف تبعاً للزمان والمكان، والسّياق، فالخطط التأملية وأنماط التفكير، التي ينظم الشخص بواسطتها تجربته ويفسرها، تشتمل على المعتقدات والتخمينات، تتكون المعتقدات بوصفها تقييمات للواقع، بواسطة التصوير الرمزي ومبدأ الحكم الانتقائي أو السلطة، وأنظمة الحكم العصبية. ينظر: باربرا وتمر، الأنماط الثقافية للعنف، ص 19.

iv – حاتم الورفلي: بول ريكور...الهوية والسرد، تقديم: أحمد عبد الحليم عطية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 2009، ص 53.

v – مراد موهوب، لغة العنف وعنف اللغة : مقاربة لسانية نفسية، ص 4.

vi – رولان بارت: لذة النص، رشيد بن حدو، قراءة في القراءة، مجلة الفكر المعاصر، عدد: 48-49، 1988، ص 19.

vii – مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة: سلسلة كتب ثقافية شهرية، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت، 1978، ص 13.

viii – مقامات الوهراني، مقامة في شمس الخلافة، ص 98.

* – توضيح: العذاب المقيم بنفس كل من "المرأة المغربية" و"الرجل المشرقي" نتيجة للازدواج: تمثل له كالتالي: الرجل المشرقي يتخبط في المعاناة(البطالة-الفقر)- يتمتع بجنسية مشرقية./ المرأة المغربية بلغت في العنوسة مرتبة، أنهكها التشرد- تتمتع بجنسية مغربية.

ix – مقامات الوهراني، (مقامة في شمس الخلافة)، 98.

x – باربرا وتمر، الأنماط الثقافية للعنف، ص 16.

xi – مقامات، م، س، ص 102.

xii – ينظر: إبراهيم محمود، الشبق المحرم، أنطولوجيا النصوص الممنوعة، شركة رياض الريس، بيروت، ط1 2002، ص18.

xiii – إبراهيم محمود، الشبق المحرم، أنطولوجيا النصوص الممنوعة، ص 22.

* – مُحَمَّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ولد سنة 151هـ، ومات سنة 204هـ، وقدم مصر سنة 198هـ وظل الشافعي في مصر، وكان محببا إلى الخاص والعام لعلمه وفقهه وحسن كلامه، وأدبه وحلمه. ينظر: ابن الأثير اللباب في تهذيب الأنساب، ج2، ص 5.

** – العرقالة: تعرقل: تعوج. مقامات الوهراني، الهامش، ص 100.

*** – قذال جماع مؤخرة الرأس من الإنسان. ينظر: م، ن، هـ، ن، ص ن.

**** – اللكاف: لغة في الإكاف، وينسب إليه من يعمل في الإكاف ويبيعه، والإكاف: البرذعة، جمع أكف، م، ن هـ، ن، ص ن.

* – الشماشك: زي من ملابس الرعاة ويطلق على اللوالك. مقامات الوهراني، الهامش، ص 101.

xiv – م، ن، ص 100-101-102.

xv – عبد النبي دشين، شعرية العنف، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص27.